

المعلم الإلزامى في ميدان الحياة الاجتماعية

للاستاذ محمد أبو بكر إبراهيم

امتنش بوزارة المعارف

من الناس من تواتيه الفرص فلا يفترصها ، وتمدله الحياة بفاجها فلا يكاد يابه لها .
وتجلى أمام ناظريه الظواهر المختلفة السياسية والاجتماعية والطبيعية فلا يلتفت إليها . يؤثر
العزلة والانفراد ، وينقبض عن المخالطة والاشترك : همه نفسه ، وشغله ذاته ، ولا شيء
سوى ذلك . ومن كان هذا شأنه ، كان - ولا ريب - مريضاً بداء الأثرة ، وحب
الذات ، والمنفعة الشخصية الخاصة . ويستحوذ هذا الداء على مشاعره وعواطفه ، ويمكن
منه في أعز ما لديه ، وأنفس ما أنعم الله به عليه ؛ فيضيق صدره مثل ما ضاق أفقه ،
وتبتئس نفسه مثل ما ابتأس أيامه ؛ ويرى المجتمع عدواً ومفرماً ، فيخاف أن يندمج فيه ،
أو أن تزل قدمه في مهاويه . ويكون جزاؤه الحرمان من الفضائل الاجتماعية والدينية التي
لا تتحقق إلا في معترك الحياة .

ثم كيف تكون الحياة الاجتماعية لو تقطعت بين الناس أواصر التراحم ، وقبض كل يده
عن عشيرته وبني ملته ؟ إنها تكون أشبه شيء بميادين الوغى ، ومباحات المارك والقتال .
يسود فيها التهاوت والتكالب على جمع المال طيبه وخبيثه ، وتضيع فيها الحقوق والواجبات
وتفقر من نعم المعاضدة والمواصلة ، والمؤانسة والمجاملة : فلا تناصر ، ولا تعاون ، ولا إزاء ،
ولا وفاء ، ولا مروءة ولا نجدة . وهذه هي الفتنة القاتلة التي لا تتر سوى العدوان والخذلان ،
والندامة والخمران .

فأول خطوة في سبيل سعادة المعلم الإلزامى خروجه من سجن ذاته ، واهتمامه بالحياة
العامة الاجتماعية ، وتعاونه مع القرية على المهام المتنوعة ، وجهاده المستمر لإصلاح البيئة
السيئة ، ومعالجة النقائص معالجة الطيب الخائف ؛ لكي يكون خليقاً بمنصبه ، وجديراً بأن
يتولى - بحق - قيادة التعليم والتربية في بيئته .

وعليه واجبات ، لو قضى عمره فيها ، لوقف دون إتمامها جميعاً ، لأنه عضو في المجتمع
ولأنه مكلف بإصلاح نفسه ، وتربية أبناء مدرسته ، وإنهاض أهل قريته ، وإفادة من
تصل بهم من بني وطنه .

ودون الوصول الى هذه الغايات أشواط بعيدة ، لا يقطعها إلا المصلحون النافعون
توصلا الى الحياة الكاملة السعيدة . فالمعلم الذي يقتصر على إعداد المادة العلمية لتلاميذه ،
ويقف عند حدود الحصص المقررة عليه في جدولته ، يعد مقصرا في حق تلاميذه أنفسهم
وفي حق بيئته وأمه ، ولا يسمى مربيا .

ومعلم القرية يجب أن يكون مربيا يأخذ الأطفال بجمل العادات ، وحيد الخصال ،
ويحبي في نفوسهم النزعة الدينية ، ويقوى فيهم العقائد الصحيحة الروحية . وفوق ذلك يكون
قدوة صالحة يحارب الرذائل ، ويدين على مكارم الأخلاق ، وينشر الفضائل في قومه ،
متذرها بالوسائل التي تهينه لأن يكون إماما مرشدا ، وأمينا ناصحا ، وحكيما مخلصا لأهله
وعشيرته وبني بلده .

وإن أول واجب على معلم القرية أن يدرس نفسية الجماعات ليعرف أن لها تفكيرا ،
وشعورا ، ووجدانا ، وإرادة . وأن لها حماسة ، وتعصبا ، ومزاجا ، وأن التأثير فيها إنما
يكون بالاستمالة والاستهواء ، والترغيب والتشويق ، واللين والحلم ، وسماحة الخلق ، حتى
تلتف حوله ، وتسمع قوله وتصنى إلى إرشاده ونصائحه .

ومن جهل من المعلمين عقلية الجماهير فأساء إلى شعورهم : بتجهيلهم ، أو بتعنيفهم ،
أو بالتعالى عليهم ، أو بسبهم ، أو بإيذائهم ، فإنه يكون منبوذا منهم على السواء ، إذ تهيج
أعصابهم فيركبون متن الشطط في معاداته ، ومعاندته ، والتكرله .

لذا كان من أوجب الواجبات على المعلم أن يتخذ أمثل الطرق لإصلاح النقص في أهل
القرية ، وأن يقوم ما فيهم من اعوجاج ، بملاطفتهم ، والتنزل إلى ما فوق مستواهم بقليل ،
وإرشادهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومعاملتهم باللين والرفق ، والإخلاص والصدق . وأن
يكون ذا شخصية قوية صالحة ليوحى إليهم بتقليده في أقواله ، وأفعاله ، وسائر أحواله . فإن
خير الإرشاد ما جاء عن طريق الإيحاء والاستهواء ، وصدر عن مثال . وير بالتحاكة والتقليد ،
لا ما يجيء بطريق الأمر والنهي .

أما المعلم المتعالى عليهم ، المبالغ في الإعجاب بزيه وحب . يبواجه ، الفخور بمنصبه
وعلمه ، فإنه يثير في نفوسهم ماكن فيها من الحسد له ، والحقد عليه ، اقتشد ثورتهم ضده ،
ويتألبون عليه ، وينصرفون هم وأبنائهم عنه ، وبئس المتصير .

أريد من هذا أن يكون مثل المعلم في إصلاح قريته مثل البستاني الماهر الذي يفرس
في بستانه أنواع الأشجار الباسقة ، والرياحين الغضة ، والأزهار العطرة ثم يجعل بابه مفتوحا
للتزهدين والنظارة من الجمهور . فإنهم يحبون أن يستمتعوا برؤية ما فيه من جمال ساحر فيندفعون
إليه بشوق ورغبة وينفثون وينتبطون .

وكذلك المعلم يكون بعلمه وخلقه وأدبه أسوة حسنة لهم فيأتمون به ، ويسيروا على طريقته ، وينسجون على منواله ، من غير أن يأمرهم باتباعه ، أو يسوقهم إلى الاقتداء به ، لأن مافيه من قوة مغناطيسية قد جذبتهم وشاقتهم واستأثرتهم إليه . وهنا يكون النجاح في تأدية رسالته .

فعلم القرية - على هذا الاعتبار - يمكن أن يؤدي أجل الخدمات القومية ، متى أحس إحساسا عميقا بالمسئولية الكبيرة الملقاة على عاتقه إزاء الواجبات الانسانية التي يجب أن يقوم بها طوعا واختيارا وحيا لها في ذاتها ، لاطمعا في مثوبة ، ولا خوفا من عقوبة ولكن لأنها فضيلة ومحال .

وأهم ما يبدأ به عمله : القيام بالإمامة والوعظ والإرشاد ليمد أهل قريته بما آناه الله من علم وفضل ، وله في الكتب الدينية ، وقصص الأنبياء ، وسيرة سيد المرسلين ، وأنبياء الصحابة والتابعين مورد لا ينضب ماؤه ولا ينفد معينه ، فيقفهم على كثير من أصول دينهم ، ويذكرهم بآياته وعقائده وتعاليمه .

ومهمة المصلح شاقة وعظيمة ، لأنها تتطلب جهادا وتضحية ، وتستلزم شدة الإيمان بشكرة الإصلاح التي ينشرها ويؤيدها بالقول والعمل . وأول ما يواجهه - بادئ الأمر - تطهير البلاد مما أصابها من لوثات خلقية ، أو آفات اجتماعية ، أو أمراض أخرى مختلفة فيعمل جهده طاقته على إزالة الأسباب والمؤثرات والعوامل التي أنتجت هذه النكبات ، فالمعلم المصلح يعمل لمحو الأمية وإخراج قومه من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، وتبصيرهم بالمبادئ الأولية الصحية ليتقوا ويلات الأمراض ، والوقوع في براثن الجهالة والأدواء ، والوقاية خير من العلاج ، كما يقول الشاعر :

توق الداء خير من تصدب
لأيسره ولو أمن للطبيب

مع إسداء النصيحة لمرضاهم بالتردد على المشافي ، والمساعدة إلى الأطباء قبل أن يتمكن منهم الداء ويصير مستعصيا علاجه .

يمكنه أن يعمل على نشر النظام ، واستتباب الأمن ، فيعين رجال الشرطة وأولى الأمر على تأدية مهامهم . بأن يساعد على رد الأمانات لأهلها ، وإيصال الحقوق لمستحقيها ، والوساطة في الصلح بين المتخاصمين ، وشل السخائم من الصدور ، وإزالة الأحقاد من النفوس ، وإحياء معالم الشهادة الحقة ، وقول الصدق ، واحترام القوانين . وأن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر عملا بقوله جل شأنه " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " .

وإن المعلم ليضع نفسه في مأزق حرج إن تحيز لفئة في القرية معادية لفئة أخرى فيها ، لأنه بذلك يزيد نائرة غضبهم ويشير الإحن والبغضاء في قلوبهم فيجعلهم أعداء متخاصمين متعصبين تعصب الجاهلية الأولى مما تضطرب به حالهم ، ثم هو لا ينجو من أذاهم . والعاقلة من لا يربح نفسه في مضيق لا يقدر على الخروج منه .

ولكن يكون أسوة حسنة لهم يجب أن يجعل مقامه في القرية التي بها مدرسته ليأتموا به في كل شيء ، وليكون بيته نموذجاً طيباً للنظام والنظافة والترتيب ، فيقتدى به الأهليون ، ويحاكونه ، ويحاولون أن يرفعوا بيوتهم إلى مستوى قريب من مستوى بيته في استيفاء الشروط الصحية الضرورية .

محمد أبو بكر إبراهيم

كتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى عامله على مصر :

” أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلِكَ ومن لك فيه هوى من رعيتك ، فإنك إن لم تفعل تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان خصمه دون عبادته ، ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان الله حرباً عليه حتى يتزع أو يتوب . وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته ، من إقامة على ظلم ، فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد .

ولكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لراحة الرعية . فإن سخط العامة يحجف برضا الخاصة ، وإن سخط الخاصة يقتصر مع رضا العامة . وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرضاء وأقل معونة له في البلاء وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف من أهل الخاصة . وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعمدة للأعداء العامة من الأمة ، فليكن صفوك لهم وميلك إليهم “ .